# نصوص مختارة من بعض كتبه

ويحسن بنا – بهذه المناسبة – أن نورد فيما يلى نماذج متفرقة من بعض كتبه ، مما قد يتضح به النهج الذى سار عليه الشيخ طنطاوى فى التأليف ، ويوضح أسلوبه ويبين منهجه .

ولا تفوتنا الإشارة إلى أن من العسير حقا أن نلم بما سنورده من مقتطفات من كتبه إلمامة كاملة بمحتوياتها .

# من كتاب «ميزان الجواهر»

**أقسام الحب**

اعلم أن الحب أربعة أقسام :

الأول : مذموم وهو الحب الشهوانى السافل الذى اشترك فيه الحيوان والإنسان ؛ فمن تولع به دل على نقص فطرته ، وهو مستفيض فى الطبقة السفلى من الناس «ذلك مبلغهم من العلم» .

الثانى : حب الناس بعضهم بعضاً للكمال والآداب وهو مستفيض بين ذوى النفوس العالية والأخلاق الكريمة والأدباء والظرفاء ، ومتى اعترته الشهوة صار من الطبقة السفلى كما تنزل الفرس عن مرتبة الجياد إلى درجة الحمير بضعفها عن الكر والفر .

الثالث : أن تحب جميع العوالم للبحث عن حقائقها حتى كأنك عاشق لكل ما تراه لتبحث عن حقيقته ، وهذا عشق العلماء والعارفين .

الرابع : محبة مدبّر هذا الكون .

واعلم أن كل درجة من هذه الدرجات أعلى مما قبلها ومقدمة لما بعدها إلاّ الأولى فإنها قد تعد فسقاً وفجوراً مردية إلى جهنم وبئس المصير . اللهم إنا نسألك أخلاقاً عالية ، ونفوساً صافية ؛ حتى نصل إليك ؛ فالحب لا يمكن إلاّ مع تهذيب الأخلاق ، وكلما تهذبت النفس وصَفَتْ سعى الإنسان فى نفع أمته لحبه لها ؛ ولذلك ترى أهل الكمال يحرصون على منافع أممهم حبا وشفقة مع بحثهم عن الحقائق الكونية ، ثم يغلب على نفوسهم حب ربهم : قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام : «ربِّ قد آتيتنى من الملك وعلّمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليّى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين» «يوسف : ١٠١» فالملك إشارة إلى نفع أبناء الجنس ، وتعليم التأويل إشارة إلى التمكن فى العلم ، وما بعده إشارة إلى ولوع النفس بالرب سبحانه وتعالى ؛ وأما المرتبة السفلى فهى منعدمة عنده عليه السلام بالعفة التى مدح بها فى أول السورة فافهم النكت القرآنية العجيبة .

ولما كانت البغضاء منافية لمقصود الشرائع الإلهية ورد قوله تعالى «وأنْ تعفوا أقرب للتقوى[١]» ، «فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين[٢]» ، وقوله تعالى «ولا تنسوا الفضل

(١) البقرة : ٢٣٧ .

(٢) الشورى : ٤٠ .

بينكم »[١] وقوله عليه الصلاة والسلام « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . ولكن مع هذا كله يجب على العاقل الاحتراس من الأعداء وأهل الشر والخداع وأن يكون على حد وسط بلا إفراط ولا تفريط . فلا يصادق أحداً إلاّ بعد تجربته . وإذا أحب أو أبغض فليعتدل كما قيل : أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما . وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما . والمقصود الاعتدال على حال التوازن فى جميع الأطوار كما هو حال الكواكب المذكورة . فكأن البغضاء التى أشار إليها الله تعالى بقوله « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو »[٢] سوط أدَّب الله به عباده فيقفون موقف الاعتدال ككواكب السماء .

ألا فاستقم فى كل أمرك واقتصد    فذلك نهج للصراط قويم
ولاتك فيه مفرطاً أو مفرطا    كلا طرفى كل الأمور ذميم

فبقوة التنافر والتجاذب تم نظام الحياة « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ففروا إلى الله إنّى لكم منه نذير مبين »[٣] وهنا نكت يفهمها أولو الألباب ولنشر إلى طرف منها فنقول :

اعلم أنه لوكانت الحياة الدنيا ليس فيها إلاّ أسباب الوفاق التام لا منازع ولا مشاحن ولا مقاطع ولا مدابر – لكانت دار سعادة ؛ إذ الحب هو المطلوب . وهو لذة الروح التامة ، وحينئذ لا يحب الإنسان الانتقال منها إلى دار الآخرة ؛ فمن رحمته أن أدخل التنافر مع المحبة والمنع مع الإعطاء والفقر مع الغنى والذل مع العز لئلا يركن العاقل إلى دنياه ؛ فلذلك أعقبه بقوله : « ففروا إلى الله » . واخرجوا من هذا التنازع فيالها من سياسة إلهية كاد يحوم حولها الإسكندر فى شغله ملوك الطوائف بعضهم ببعض ليفروا إليه وبعضهم لبعض مبغضون ! فمن لم يزهد فى الدنيا بعقله فالحوادث تبغضه فيها رحمة من الله بخلقه . والمقصود أن النعيم فى الدنيا واللذة ليسا مقصودين « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إن روح القدس نفث فى روعى : أحبب ما أحببت فإنك مفارقه . وعش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به » جاء هذا فى الأحياء ؛ فالدنيا كلها لا ترى فيها إلاّ جذباً وتنافراً تشهد بذلك الكهربا يعرفها من درس الطبيعة ، وهكذا الموت والحياة . والحزن والفرح ، والخير والشر ، والظلمة والنور ، والعلم والجهل ، والبذل والمنع ، وكل هذه متناقضات والعقل والشرع حاكمان بين تنافر الأخلاق : فالفرار إلى الله بالعلم واستعمال العقل وفهم الشرع ؛ حتى يحكم العقل ويحكم الله وهو خير الحاكمين ولهذه الآية وجه آخر عجيب فراجعه فى كتاب « جواهر العلوم » .

---

(١) البقرة : ٢٣٧ .
(٢) البقرة : ٣٦ .
(٣) الذاريات : ٤٩ ، ٥٠ .

**جوهرة فريدة :**

ما أجمل الحكمة وألذ العلم ! كم من قارئ يقرأ القرآن ولا يعقل ما فيه من الحكم ولا يذوق حلاوة لطائف معانيه : تأمل فى مدارك الإنسان التى لا يصل العلم إليه إلاّ بها وهى ست : العقل ، والحواس الخمس تجد بينها تفاضلاً وهى درجات بعضها فوق بعض : فما كان منها أبعد مرمى بحيث يدرك ما بعد عنا فهو أشرف ، وما كان منها مقصوراً على إدراك القريب أو الملاصق فهو أدنى مرتبة وأقل شرفاً : فالقسم الأول هو العقل والبصر والسمع ، والآخر هو الشم واللمس والذوق . وقد ذكرناها الآن مرتبة باعتبار درجاتها من الأعلى إلى الأدنى ، فكانت نعم الله على الإنسان فى القسم الأول أعظم ومطالبته بالشكر عليها أكبر ؛ ولذلك خصت بالذكر فى تلك الآيات المتقدمة ، فافهم نكت القرآن وإشاراته ولنرجع إلى ما كنا بصدده فنقول :

وكم من نواميس فى طى الخفاء عن البشر لم يطلعوا عليها وسيأتى لك هذا إن شاء الله عند ذكر قوى الإنسان وعلومه . إن قوة البشر لا تبلغ إلاّ قدراً محدوداً من العلوم كما سترى البرهان عليه بأجلى بيان ، وإن قوة العقل تقف عند حدها كما تقف قوة البصر عند حد معلوم ، وكما لا تعرف العين الأصوات ولا الأذن الألوان كذلك العقل لا يعرف ما ليس تحت طاقته وما لا يلزم العالم الإنسانى فى معاده أو معاشه وإلاّ تشوشت عليه حياته واختلت أحواله وساء مصيره . قال تعالى : «ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض»[١] وتصوير الحشر بما ذكر من النجمة وأنها هى أرض الحشر والجنة والنار تخيل فاسد نشأ عن فهم عامى ، كيف ذلك وقد تضافرت الكتب السماوية ودلت الدلائل العقلية وقامت الحجج اليقينية على أن عالم الآخرة أوسع من السموات والأرض وما بينهما ؟ وما جواب هذا المتخيل إذا سئل عن تلك النجمة كيف يحصل فيها النعيم المقيم مع ما ورد أن بعض أهل الجنة من المؤمنين يأخذ قدر الدنيا عشر مرات مع أنه آخرهم دخولاً ؟ (انظره فى الشمائل للترمذى) وإذا كان هذا حال أقل أهل الجنة فكيف بالصالحين الأبرار ؟ بل كيف يكون حال العلماء العارفين ؟ وكيف بالأنبياء والمرسلين ؟ «وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً »[٢]. وكم ورد فى سعة الجنة ونعيمها مما لا يتناهى ! حتى ورد تقديرها لعموم الخلق بأعظم ما يتخيلونه من عالم المساحة ولا مساحة أوسع من السموات والأرض فقال تعالى : «وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين »[٣] . مع أنها أجل وأوسع وأعظم من ذلك فأين النجمة التى هى ذرة

---

(١) البقرة : ٢٥٥ .
(٢) الإسراء : ٢١ .
(٣) آل عمران : ١٣٣ .

صغيرة من عالم السموات ؟ بل أين السموات والأرض وما بينهما «والله واسع عليم يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلاّ أولوا الألباب(١) » . ولأمسك عنان القلم عن الخوض فى عباب هذا البحر ؛ فنى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

**تعليق :**

أحب أن أسترعى النظر إلى أن ما سبق كان ردًّا على بعض علماء الفلك الذين يتصورون أن قيام الساعة عبارة عن اصطدام نجم مع الأرض ، فتتزلزل زلزلة عظيمة وتخرج أثقالها ، ويقول الإنسان مالها . ويقع كل ما عليها على تلك «النجمة» وهى العالم الأخروى الذى يكون فيه الحساب والعقاب والجنة والنار وهى تكون أوسع من أرضنا طبعاً . .

## من كتاب «التاج المرصَّع»

**الجوهرة الرابعة عشرة :** «تربية الوجدان فى الإسلام» :

لقد ترك الشرقيون الطريقة التى أشار إليها القرآن الشريف واتبعها الإفرنج ، كما درسته فى كتب الغربيين ، وكلتاهما ناقصة والطريقة المثلى أن يؤخذ النشء بدرس الأشياء فى صغرهم على شريطة أن يذكروا ربهم عند درسها وفهمها ليكون ذلك داعياً لتربية حبه فى القلوب ، وخشيته فى النفوس ، فلا تمر قاعدة أو عجيبة أو قانون طبيعى ، أو نظرة فلكية ، إلاّ يقرن بجلالة من سنها ، ويذكر من رسمها ، فيشب الفتى دارساً للعلوم ، محبا لمبدع الكائنات كما طلب نبينا ﷺ فقال : «كل شىء لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر أو أجذم أو أقطع » . ولا معنى لذلك إلاّ تذكر أن هذا المخلوق الذى أزاوله أو آكله أو أدرسه أو أفكر فيه إنما هو أثر من آثار جلاله مذكر لنعمائه ؛ ولذلك ترى كل سورة فى القرآن الشريف بدئت ببسم الله الرحمن الرحيم تدريباً على ذلك وتعليماً وتنويها بانتهاج هذه الخطة اللهم إلا سورة التوبة ؛ ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يقول «اذكروا الله عند كل حجر وشجر» ومعناه ملاحظة مبدع الشجر والحجر عند رؤيته أو درسه ؛ وتذكر أنه خلقه وعلى هذا تنمو فى المرء قوة الدين والوجدان وحب صانع العالم فيها به ، ويعمل له ، ويراعى عباده ، وهذا بعينه هو ما قرره العلامة سبنسر الإنجليزى ؛ إذ أبان أن التعليم لا يجدى بمجرد البرهان بل بتربية الوجدان بالمحادثة والتذكير . وترى هذه طريقة القرآن والإسلام لا المسلمين ؛ إذ يذكر محاسن العالم وجماله ويذكّر

(١) البقرة ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

بالشمس وغروبها وشروقها والكواكب وغرائبها إلى غير ذلك . أما تعليم الشرقيين المسلمين فإنما يأخذون فيه الناشئة بالكلام العرضى والتطوح بهم فيما يرجع إلى القضايا التى تحوم حول فلسفة اليونان ردًّا على قوم واراهم التراب وانقرضوا فى الغابرين ، وذهبوا مع أمس الدابر . وتراهم يناقشونهم فى قبورهم وينازعونهم فى برازخهم ويذرون ما خلق لهم ربهم مما أبدع وأحكم . ولم يعلموا أن علماء الغرب برعوا حتى قاربوا دينهم القويم وصراطهم المستقيم فأحاط بنا الفقر والصغار والذل والشنار ، واحتلتنا الأعداء وأحاطوا بنا من كل جانب ! أما الغربيون فقد ورثوا الأرض بما أوتوا من العلم الناقص ولكن مدنيتهم ذاهبة إلى الزوال بما عصوا ربهم ، ولم يبنوا العلم على أساس متين ؛ أَمَا وربك لو أنهم اعتقدوا أن هذه العلوم عبادات وأنها كالصلوات والقربات وأنها نفسها الدين حقيقة كما سأذكر لك بمئات من الأدلة لكانت مدنيتهم أثبت المدنيات ، فكانت المعاصى تزول والشرور تقل وخوف الله يلازم النفوس ملازمة الخيال للذهن والتصور للعقل «إنما يخشى الله من عباده العلماء» [1] .

**الجوهرة الثالثة والعشرون** : «الأقسام مفاتيح العلوم» ،

اعلم أن الله أقسم بأشياء مما خلق وعمد إلى ما جمل شكله وعظم نفعه وبهر حسابه فعدده فى أقسامه .

ولعمرى أن النوع البشرى لن يقسم إلاّ بمعظّم لديه أو بمسيطر عليه : يقول الولد وحق والدى ، وتقول الرعية رأس فلان الحاكم . والجندى يقسم بشرف الجندية ، ويقسم الوزراء بالملوك . ونسمع لرجل يحلف بعينيه لما يرى من منفعتها وزينتها . . وقد أقسم الله بأشياء عددها ، وصنوفاً من نعم أبدعها كالشمس والقمر والكواكب ، ولم يكن ذلك لخوفه منها فإنه الخالق لن يهاب ما خلق ، ولن يحتاج لما ذرأ وأبدع ، أقسم بها ؛ إذ رأى نوع الإنسان يقسم بما عظم نفعه وعز عليه فاسترعاهم وأيقظهم إلى ما ذرأ ، ونبههم إلى مصنوعاته ليعرفوها ، فلم يرد أن يعبدوها إذ لا إله إلاّ الله . فالإقسام بها يرجع إلى عزتها وشرفها ، ولم يكن ذلك لتحريضهم على الحصول عليها بوجودها فى حوزتهم ؛ فذلك مستحيل . فرجع الأمر إلى العلم وفات الإنسان أن يملك هذه العوالم ويسيطر عليها ؛ إذ لا سلطان إلاّ لواحد هو الله فكان المقصود من الإقسام فى حقهم أن يعرفوا جلالة ما صنع ، ويتبعوا حركات الأفلاك وعلوم الضوء وحسابه والمشارق والمغارب ، ويشرحوا تلك الأجسام ويلاحظوا حركاتها وسكناتها لترقى نفوسهم إلى علوها وشرفها ، فتراه عز شأنه أقسم عشرين قسماً

---

(١) فاطر : ٢٨ .

بالأجرام العلوية وخواصها وأضوائها ومواقعها . تراه أقسم بالفجر والفلق وهو الصبح . والشمس والضحا والنهار والعصر والليل إذا يغشى (يغطى) المخلوقات كأنه ملاءة منشورة عليهم . والليل إذ يسرى . يسير حول الكرة الأرضية تابعاً النهار والنهار يتبعه . وأقسم بالليالى العشر فى أول كل شهر عربى لغلبة ظلامها على ضوئها ، وأقسم بالنجم إذا هوى تنبيها على مغارب النجوم وإيقاظاً لها . وأقسم بمواقع النجوم وأماكنها التى فيها ودوائرها ثم أعقبه بقوله : «وإنه لقسم لو تعلمون عظيم»[١] فإذا أقسم وعظم القسم فهل يكون ذلك إلاّ لاسترعاء النفوس إليها لتعرف مواقعها وقياسها وأبعادها وحركاتها وسكناتها . وقال (أقسم بربِّ المشارق والمغارب)[٢] أى محل الشروق والغروب . وأقسم بالشفق وبالليل وبما وسق الليل أى جمع ، وأقسم بالقمر وبالسماء ذات البروج تنبيها لمعرفتها لتُعْرَفَ السنون والشهور والأيام . وأقسم بالسماء ووصفها بأنها ذات الحبك أى طرق النجوم ، وبالقمر إذا اتّسق أى امتلأ بالنور . . وأقسم بالسماء وبمن بناها . وأقسم بالنازعات غرقاً وهى النجوم التى ترمى شهباً عن دوائرها المشبهات القوس فكأن النجم إنسان والدائرة قوس والشهاب الساقط سهم . وذكر أنها نشيطات فى سيرها . مسرعات فيه . تتم دورانها كالشمس فى سنة والقمر فى شهر فقال (والناشطات نشطاً فالسابحات سبحاً فالسابقات سبقاً)[٣] أى النجوم التى تسبق غيرها وتتم دورتها سريعاً (فالمدبرات أمراً) وهى هذه النجوم إذ بها يتم تدبير العالم . فذكر هذه الكواكب والعوالم ومواقعها ؛ ليحرض السامعين على البحث عنها فيعرفوا الفلك والميقات وحساب الكواكب وأبعادها وأجرامها وتحليلها وأعدادها بقدر الاستطاعة ويبحثوا عن الضوء فى الطبيعة . ثم إنه تعالى أقسم بذكر أشياء أخرى مما تحت الفلك وأحاط بالكرة الأرضية فأقسم بالرياح الذاريات وبالجبال فقال : (والذاريات ذروا فالحاملات وقراً) أى الرياح التى تحمل السحاب وتذرو الأشياء . وأقسم بالأرض وما طحاها فالأرض مفهومة وطحوها دحيها وتسويتها وإتقانها . وأقسم بالجبل فقال (وطور سينين) ، وبالنبات فقال (والتين والزيتون) ، وبالبلد الذى خرج منه سيدنا محمد ﷺ فقال (وهذا البلد الأمين) وأقسم بالخيل فقال (والعاديات ضبحاً) أى الخيل التى تعدو وهى تضبح فى الجرى ضبحا . وأقسم بكل من يحس وكل ما يحس فكأنه أقسم بكل محسوس وبكل ما يحس به . وكأنه أقسم بالناطق والصامت فقال : (وشاهد ومشهود) وأقسم بيوم القيامة وبيوم الجزاء ويوم الميعاد الذى سيجازى فيه الناس . وأقسم بالكتب المسطرة المنثورة وهى ما يقرؤه الناس . وأقسم بالبحر ثم عمم القسم بكل ما خلق فقال : (أقسمُ بمَا تبصرون وَما لا تبصرون)[٤] فكأنه أقسم بكل شىء إذ العالم قسمان : ما يبصر

---

(١) الواقعة : ٧٦ .
(٢) المعارج : ٤٠ .
(٣) النازعات : ٢ - ٤ .
(٤) الحاقة : ٣٨ ، ٣٩

ومالا يبصر ، وجاء بتعميم آخر فأقسم بالشفع والوتر ، ولاريب أن العدد إما شفع أو وتر . هذه نحو عشرين قسماً أحاط بها الأرض والهواء والسحاب والجبال والنبات والحيوان ، وخصص الإنسان منه فقال ( ووالد وما ولد ) أى أقسم بآدم وأولاده وغيرهم ، وخصص ذلك بعد فقال ( ونفس وماسواها ) فأقسم بالنفوس وتسويتها . فتراه أقسم بأمهات العالم كلها ، وأخيراً أقسم بكل ما خلق مما نشاهد ومالا نشاهد .

تفيد هذه الأقسام بالعلويات وهى تبلغ العشرين وبالسفليات وهى تبلغ العشرين أيضاً – أن الله أمر عباده وأوجب عليهم النظر فى العلويات والسفليات بالتساوى . وفى الحساب والهندسة والطبيعة والكيمياء وعلم العمران والنفس وجميع العلوم ؛ إذ لم تخرج فى البحث عما ذكر فى تلك الأقسام التى أقسم بها مبدعها ، وكأن الأمة التى جهلت ما أقسم به وأعرضت عنه ولم توفه حقه فى النظر – قد أعرضت عما أقبل عليه مبدعها وازورت عما أراده خالقها !

جعلنا هذه الأقسام مفاتيح العلوم لأنه ذكر جواهر الأشياء فيها ؛ ليسترعى إليها العقول ويحرض على البحث عليها العلماء والأمم ، ولم نقل إنها العلوم ؛ لأن الآيات التى سنذكرها قريباً سنعطى كل جوهرة من هذه الجواهر قسطه منها ونوفيه نصيبه غير منقوص ! فإذا طالعت أيها القارئ ما سأقص عليك من كتاب الله تعالى والآيات الواردة فى الحض على العلوم فستعجب كل العجب ، ولتجدن أن الدين دين العلوم والحكم ، دين العمران والنظام ، دين المدنية الحق ، دين رقى النفوس ، دين ارتقاء نوع الإنسان . دين بقى كنزاً مخفيا لك يكتشفه علماء العصر المفكرون ، دين خيم عليه عناكب النسيان ، وأحاط به سور الهجران ، وأضحى فى خبركان . اللهم إلاّ جزءاً قليلاً من عباداته ومعاملاته التى تكفى حياة الضرورة ، وإنى لأرجو أن يكون كتابنا هذا كاشفاً عن مُحيّا جلاله ، مظهراً جمال بهائه ، مسفراً عن كنه معانيه ، باسطاً شارحاً مبيناً . وإنى أستعين بمسبب الأسباب ، مدبّر الخلائق ، القادر الحكيم – أن يلهمنى الصواب ، ويوفقنى كما ألهمنى ، إنه سيجيبنى ، إنه لطيف بعباده رءوف رحيم .

## من كتاب « جمال العالم »

**الحيوانات أمم أمثالنا :**

. . . ومن هنا فلنفهم قوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم »[1] فيكون لها تدبير كتدبيركم وهندسة وأحكام كلها معلومة . ولولا هذا الحساب لاختل

(١) الأنعام : ٣٨ .

النظام وفسدت الأحكام .

ولولا أننا كتبنا هذه النظامات عندنا ما بقى لها وجود لحظة واحدة ، وكيف يبقى ما لا نظام له ولا ترتيب ؟ بل لو أخللنا واحدة لسرى الخلل إلى الجميع ؛ إذ الكون كله كساعة واحدة « ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون »[١] .

**قسمة عادلة بين الحيوان الصغير للحكمة والكبير للعمل :**

اعلم أن الحيوانات الكبيرة قادرة على حمل الأثقال ومعاناة المشقات والصعوبات ، وأما الحيوانات الصغيرة فإنها ممتازة فى الإحكام فى العمل كالنمل فى بيوتها ، والنحل فى مساكنها وأعمالها ، والعنكبوت فى نسجها ، والأرضة فى بنائها من الغبار المجتمع مع الندى مساكن محكمة ، والجراد ودود القز ، فكل هذه ذات حكمة وصنع متقن يعجز عنه الإنسان ، فقامت دقة الصنعة مقام القوة والصبر على الأعمال ؛ فهذه قسمة محكمة : عظم الجثة مع الأعمال ، وصغر الجثة مع الحكمة « إن ربكم لرءوف رحيم » ، « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم »[٢] : فتأمل تر الجمل والفرس والحمار والشاة والأرنب لا قدرة لها على الحكم والصناعات والهندسة والرونق ، واختصت الحيوانات الضعيفة بذلك ليظهر عدل مبدع الكون وحكمته . ولن تعرف حكمة الخالق إلاّ بالنظر فى هذه الأشياء الجميلة . وهذا ما ينبغى أن ينفق المال فى تحصيله ؛ ولذا ترى القرآن يذكر هذه الحيوانات الضعيفة لينبه العقول إليها ويصرفها إلى وجهتها . وترى إنه ذكر سورة النحل والنمل والعنكبوت لذلك .

ثم إن هذه الحيوانات كلها يأكل بعضها بعضاً لا فرق بين كبير وصغير ؛ ليظهر العدل فى الموت كما ظهر فى الحياة ، وفى العدم كما ظهر فى الوجود : وذلك أن العصافير والقنابر والخطاطيف وأمثالها تأكل الجراد والنمل والذباب والبق وما شاكلها ، ثم إن البواشق والشواهين وما شاكلها تصطاد العصافير والقنابر وتأكلها ، ثم إن البزاة والصقور والنسور تصطادها وتأكلها ، ثم إنها إذا ماتت أكلها صغارها من النمل والذباب والديدان ، وهكذا بنو آدم : فإننا نأكل جميع الحيوانات الطيبة اللحم ، فإذا متنا أكلنا الدود ! وهكذا شأن هذا الكون كله كأنه دائرة أولها آخرها ، وصلاح شىء فساد آخر ، وما فساد إلا بإصلاح ، وفى الحقيقة لا فساد معقول .

**الألم واللذة للجسم والروح وكيف تشابه وضعها ؟ :**

. . . ولما كان بقاء الشخص لا يكفى جىء له بسوطين آخرين ولا يريان وهما : ألم شهوة الاقتران

---

(١) الأنعام : ٣٨ (٢) يوسف : ١٠٠

ولذة الفرح ؛ فهما سوطان كذينك ، ولو عدم هذان السوطان ما تولد الناس ولفنوا فى نصف قرن !

فانظر كيف قهر الحيوان والإنسان على بقاء الشخص والنوع ؛ ولذلك يشير قوله عليه الصلاة والسلام : «من تزوج فقد حفظ نصف دينه» . وهذا بقاء النوع «فليتق الله فى النصف الآخر» وهو بقاء الشخص ، ويكون بالأغذية المشوق لها بذينك السوطين إلى أجل مسمى وهو الموت ، وبالأخلاق الحسنة والعلوم والشرائع ، وذلك هو البقاء السرمدى وله سوطان آخران ، وهما النار نظير الجوع ، والجنة نظير الشبع هنا . فانظر كيف اتحد فعل الله فى جميع الأحوال وجعل فى كل نوع رغبة ورهبة ؛ فهذه سياسة عجيبة جداً ، وهذا المقام مقام عال . ولا يتصور ما تكلمنا فيه الآن إلاّ أكابر العلماء المتفكرين بل الحكماء ؛ لأن هذا أمر دقيق جداً . وقس على هذا المرض ؛ فإن فيه رغبة لذة الشفاء ورهبة الألم ، ولولاهما لفنى الجسم وترك الإنسان نفسه .

والحق يقال : إن الله علم ضعف الإنسان ، فلم يتركه بلا آلام ولذات وإلاّ فنى ومات ولم يعش . وسوط الله الذى يضرب به يناسب جلاله وهو مجرد عن المادة ، فسوطه يكون خفيا وإن كان فى المادة فلكلّ سوط يناسبه ؛ وحينئذ ظهر لك يا أخى مقارنة هذا بسمّ الحيات . أما قولك فلا يوافقك فإنى أمنعه ، وإنى متيقن أن كثيراً لا يفهمون مثل هذا فلا يوافقون لقصورهم عن فهمه .

**أطوار الإنسان** : (لا فرق بين زيد وعمرو إلاّ بما تعلم عنهما) :

إذا لقيت ملكاً وأنت تجهله لم يعظم عندك ، فإن علمت أنه هو عظمته ؛ فهذا مرجعه العلم ، فما تلاقى حبيبك أو ابنك وأنت لا تدرى لأحوال عارضة فلا تحلها المحل اللائق بهما ، فإذا علمت عملت وأحببت وزاد شغفك وولعك .

فالإعظام أساسه العلم ، ومن عجب أنك ترى الإنسان تارة نباتاً وأخرى حيواناً وهو جماد ثم إنسان وملك :

يشارك الجماد فى الثقل والخفة وانجذابه نحو الأرض ، وهو نبات يتغذى ويلد ويموت ، وليس ما يصنع من الفرح والولائم وما يحمل من المشاق فى تحصيل الأقوات ، فيجوب القفار ويعبر البحار إلاّ بما هو نبات . وليس للعروس من زينة وبهجة ورقاق الثياب والسندس والإستبرق والحلى والرياش والفراش إلاّ ما سبقته به الزهرة من الجمال والأصباغ والرقة والبهجة وحسن الشكل والزينة بأن إلقاح الذكور للإناث كما تراه مفصلاً فى كتبنا .

ومن عجب أن يفرح الناس ويفتخروا بالولائم والأفراح وهم لم يصنعوا إلاّ ما شاركوا به الأزهار فى النبات .

ولئن ضربوا بالدفوف وغنى لهم الموسيقار – لقد سبقتهم أنواع النحل والحشرات وهن يغنين فى

زفاف ذكور الأزهار لإناثها والعكس ، أليس هذا من العجب ؟ . .

الإنسان يلتذ بالطعام والشراب ويفرح بالغلبة والسطوة والقهر والصولجان والملك ولم يقل عن الأسد والنمر وسائر السباع والكلاب فإنها اختصت بتلك الغلبة .

وهو ملك إذ ينظر فى أمر الأمة ويسره ارتقاء النوع يكون علمه وعمله عاما نافعاً ، ويحيط علماً بالعالم على مقدار طاقة البشر ؛ فهو ملك بعلمه وعمله العامين ، حيوان كاسر بصفة الغلبة ، وخنزير أو غزال أو شاة بلذات المطاعم ونحوها . وهو نبات ربما ينمو ويلد ويموت ، وجماد بثقله وخواص الأجسام العامة .

وأعجب أمره إذ يجمع بينهما وقت واحد إذا أكل وهو يفكر فى الحكمة ويأمر بما ينفع العموم .

## من كتاب « أين الإنسان ؟ »

**الفصل الرابع : « فضائل الإنسان » :**

وهنا أخذتنى الغيرة ، وذهبت سكرة الحق ، وجاءت فكرة التعصب للجنس والنخوة والحمية ، فقلت فى نفسى : يا للعار ويا للشنار ! روح من الأرواح تجلت لك ساعة من الزمان ، فتشرح لها حال الإنسان ، فيذمنا عند العوالم الأخرى ، ويا عار الأمم الأرضية ؛ إذا رجع صديقى الوجدان إلى كوكب المريخ أو المشترى ، أو ركب متن مذنب هيلى وساح فى النظامات الفلكية العالية ، وربما قابل علماء أورانوس ونبتون ، وربما ركب كوكباً آخر ، فصعد إلى المجرة التى فيها ما لا يتناهى من الملايين النجمية ، فيخبرهم بأخلاق الأمم الحاضرة ، وما فيها من زور وبهتان ، وجهل فاضح ! أو أكون أنا السبب فى نشر هذه الأخبار فى عوالم السماء عن أرضنا ! فوالله لأذكرن محاسن الإنسان ، كما ذكرت مساويه ، وأنشر فضائله ، كما أذعت نقائصه ، ولأذيعنَّ الخير كما أذعت الشر . كل هذا خطر لى وأنا ساكت ، فدنوت إليه فوجدته يتبسّم . فقلت له : أيها الملك الطاهر ، والصديق الخالص ، إن الإنسان – وإن أساء – قد أحسن ، وإن ضل قد هدى : ألا ترى أن منا الأنبياء والمرسلين ، والحكماء والعلماء والصالحين والأولياء ، وفينا صفة الرحمة ، فمن منا لا يجزع لمصيبة حلت بأخيه الإنسان ؟ ومن من المصريين والشرقيين لم يجزع لحوادث زلازل الطليان ، وقد اختلف القومان ، وبعد المكان ، وتباين الدينان ؟ ولقد آنست قوماً من فقراء الروم يطلبون الإحسان ، والمعونة أمام كنيسة رومية فى شارع الحمزاوى بالقاهرة ، فبكيت ورحمت ، وآنست مرة غلاماً روميا يبكى وقد ضل الطريق ،

فسألته فكلمنى بلغته فلم أفهم ، فجزعت ولم يسكن ألمى إلاّ بعد أن أسلمته لرجل من بنى جنسه فعرفه ، وأنه ضلّ طريق المدرسة ! وإنا ليسرنا شعر شعرائهم ، وعلم كبرائهم ، كما يفرحهم علمنا ورقينا ، ويسوءهم جهلنا وضعفنا . وإن غطت الشهوات على العقول ، وزاحم الطمع الرحمة ، والشدّة اللين ، والشر الخير ؛ فالإنسان مركب من الخير والشر والصالح والطالح والطيب والردىء ، هكذا كان وهكذا سيكون . فلما انقضى الحديث ، ودعنى ذلك الصديق الحميم ، وانصرف ومعه الفؤاد ، وقال : إن شاء الله يكن الاجتماع فى الليلة القادمة ؛ فأغمضت عينى واستيقظت فى الصباح ، وأنا جذل فرح بما وعيت ، فقيدته فى ورقة وأنا لا أدرى ، أحقيقة ذلك أم خيال ؟ وعجبت كما سيعجب القارئون !

**الفصل الثامن : « أين الحكمة فى المادة والعقل ؟ »**

فقلت ما الحكمة فى فوائد المادة إذا لم نعقلها ؟ وما الفائدة فى عجائب العقول البشرية إذا جهلوها ؟ فقال : إن هذه المادة كلوح منقوش سُطُوراً : فالحيوان يقرأ جزءاً ، وأنتم تقرءون سطراً ، وسائر السطور يقرؤها قوم آخرون فى عالم آخر ! أما عقول النوع البشرى فإنها مستمدة من العقل العام المحيط بالعالم الفائض من علم الله عز وجل ، وهذا العقل يحيط علماً بالمادة وعجائبها ، والعقول البشرية تطلع قليلاً قليلاً على ما أُودعه من الحكم . ولئن ذبل نبات أو مات حيوان بلا فائدة ترونها — إن هناك فوائد تجهلونها ، ومتى تحلل إلى عناصره ، وكرّ راجعاً إلى مادته لم يعدم خواصه ؛ وإنما هى كامنة ؛ فلا معدوم فى هذا الوجود ، وإنه لا عدم البتة ، ليس يعدم إلاّ المظاهر ، فأما الحقائق فإنها كامنة راسخة ؛ فالمادة فيها كل نبات وحيوان وإنسان ، هكذا عقول نوع الإنسان : إنها تحفظ عناصر السعادة ، وإنما يعوزها الاستخراج والإنماء ، فمن نظر إلى زنجى وإفرنجى قال لأول وهلة : إن الأول من التّراب ، والآخر من معدن الذهب ! وضل عن هذا الزاعم فإن البذرة متحدة ، واختلفت المظاهر بالتعهد والتّربية . وما الإفرنجى إلاّ من أولئك البرابرة التّريين ، قوم جاءوا من آسيا وأحاطوا دولة الرومان ، ثم غلبتهم ، وورثتهم علومهم ولغاتهم وقوانينهم ، والمتوحشون أسرع قبولاً للمدنية وأقوى أجساماً ، وترى الأرض التى بقيت بوراً أمداً طويلاً أنضر زرعاً وأغزر شجراً من الأرض التى أنهكها الزرع والحصاد ، فكيف يهرف فريق من العلماء بقولهم متوحشون ومتمدينون ، ويحكمون جهلاً على فريق أنهم لا يرتقون ، وهم كانوا مثلهم فى غابر الأزمان ؟ فعقولكم البشرية لا تزال خاوية من الحكمة ، واقفة فى أول الطريق ولكنها على باب الهداية ؛ إذ بدأتم تكشفون أسرار الخليقة ، وستعتقون العقول من الرق ، وتستخرجون كنوز الأرض النباتية والناموسية ، فهى الكافلة

بنجاحكم ، والكافية لإسعادكم وإزالة العوائق المخترعة ، ولتعلموا أنكم نوع واحد ، «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان»[١] .

**البستان والسماء :**

. . ثم قال ما أجهلكم بالجمال ، وما أبعدكم عن الحكمة ، وما أقربكم للجاهلين ! خبرني رعاك الله : لو أن امرأً منكم خير بين النظر في السماء وجمالها ، وبين التمتع بالنظر في البساتين وأزهارها ، فأي المنظرين أجمل لديه ؟ فقلت : البساتين ! فقال : أتدرى لماذا استبدلتم الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ قلت : كلا . قال : لأنكم لا تعرفون النعم إلاّ بامتناعها ، ولا تحبون إلاّ ما كنتم عنه مبعدين ! ثم نظر نظرة إلى السماء والنجوم وأنشأ ما ترجمته من الإنجليزية :

أضئ يأيها النجم الصغيرُ فشأنك في غرابته كبيرُ
وفوق رءوسنا أبداً تسير كمثل الماس رصع في السماء
إذا ما الشمس غابت في دجاها وبل النبت في الدنيا نداها
ترينا الضوء يلمع في رباها أضئ يا نجم في غسق الدجاء
ظهرت بموكب وسط السماء وترجى النور منك على البناء
بناظرك المصوغ من السناء فلا تخبو بغير سنا ذكاء
تضيء الأرض من أعلى سماها وتهدى من يسافر في فناها
فماذا أنت يا باهى سناها ؟ أضئ فالله خصك بالضياء

**الحكومات :**

ولكم نظمت لكم الحكومات ؛ لتحفظ أمنكم ، وترفع شأنكم ، وترتق فتقكم ؛ فظننتم في الملوك مثل ما كنتم تظنون في الأصنام ، وانقدتم انقياد العميان ، وخضعتم للظالمين ، فأف لهذا الإنسان !

* * *

جهل الناس عجائب الرموز ، وحكمة الظلمة والنور ، والظل والحرور ، جهلوا مزية الديانات ، ووقفوا عند ظاهر الكلمات !

ومن جهل هذه الكائنات ، وضل عن هذه المخلوقات – فأحر به أن يجهل سرّ نظام الحكومات !

---

(١) المائدة : ٢ .

ألا فليعم التعليم والتعقل فى أنحاء الكرة الأرضية !

ألا فليعقل الناس ما حولهم ! إن حياتهم اليوم عار وألف عار ! أزيلوا ما لديكم من النظَامات العتيقة الفاسدة ، واستبدلوا بها خيرا منها ؛ فالعلم عجيب ، والله سميع قريب ، ونظام هذا العالم بديع ، والعقل الإنسانى شريف رفيع .

* * *

**الحكمة الثالثة عشرة : « الكهربا »**

لمع ضوء برق تحت عجلة الكهربا ضُحاً فى حَمَارَّة القيظ ، فأشرق وأضاء سناها الأزرق المحمر بشكل عجيب جميل ، فقلت : الحياة أعمال ومشاق ، والعقول تضىء وتسعد .

الناس اليوم فى عداوة وعذاب أليم من الحرب والضرب ، فإذا أضاءت عقولهم كما أضاءت هذه الكهربا أغدقت عليهم النعم ، وأصبحوا فى سلام آمنين ، النور الساطع الساعة من الكهربا ، والكهربا فى سائر الأجسام المادية .

إن الأرواح الإنسانية فيها كهربا المحبة والمودة والجاذبية الإنسانية ، فإذا اكتشفت تلك الكهربا أضاءت للناس ، وأسعدتهم وبدلت بالعداوة المحبة وبالمشقة السهولة . وحملت عنهم مشاق الحروب والأذى والنفقات العظيمة ، كما حملت الكهربا عن الناس أثقالهم ، وأدارت آلاتهم ، وحملت أمتعتهم ، وخاطت ملابسهم ، وأضاءت منازلهم .

وإذا كانت المادة حاوية لهذه المحبة الكهربية أفلا تحمل القلوب ما هو أجلّ وأبهى وأبهر من أنواع الجمال والعشق والمودة الناجمة عنها السعادات ؟

## من كتاب : « جواهر العلوم »

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا »[1].

قد أجمع علماء اليونان والعرب وأوروبا على أن علم النفس إنما يكون بعد الرياضيات والطبيعيات ، وهاك آخر ما وصل إليه البحث إلى وقتنا هذا من ترتيب العلوم بحيث إن المتأخر لا يفهم إلاّ بعد المتقدم (١) العلوم الرياضية (٢) العلوم الفلكية (٣) العلوم الطبيعية (٤) علم الكيمياء (٥) علم وظائف الأعضاء (٦) علم النفس والمنطق (٧) علم الاقتصاد السياسى (٨) علم تكوين

(١) الإسراء : ٨٥ .

الشعوب (٩) علم تمييز الجمال (١٠) علم ما وراء الطبيعة ، ويدخله العقائد ومعرفة الخالق والروح . وأما علم النفس فإنما هو ظواهرها لا حقيقتها (١١) علم الأخلاق (١٢) علم الحقوق (١٣) العلوم السياسية :

فأنت أيها الأخ ترى من هذا الجدول أن علم الروح فى المرتبة العاشرة مع العلم الإلهى المعبّر عنه بما وراء الطبيعة أو الفلسفة الأولى أو العلم الأعلى . والمخاطب بهذا هم يهود جزيرة العرب ، ولا ريب أنهم أبعد الناس عن هذه العلوم ، فلا يمكنهم فهم الرياضيات العليا فضلاً على الروح ؛ فلذلك قال : «وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا» ، أى ولا يفهم الروح إلاّ من درس علوما كثيرة ، وما أعجب قوله : «من أمر ربى» ؛ إذ علم الروح وعلم الألوهية فى الدرجة العاشرة .

* * *

وأما آيات الأنفس فإن للإنسان جسماً وروحاً : أما الجسم فأظهرته أشعة رنتجن التى هى عبارة عن أضواء شرر الكهربا المنحصرة فى آلات تسلط على الجسم ، فتكشف الأعضاء من الداخل ، وتظهر الدورة الدموية من وراء الجلد واللحم والقلب والعروق ، كأن هذه أجسام شفافة لا تحجب ما وراءها مما يدهش العقل ويحار فيه فكر اللبيب مصداقاً لقوله فى هذه الآية : «وفى أنفسكم» . ومعلوم أن «فى» للظرفية : أى الآيات المظروفة فى نفوس النوع البشرى . والمراد بها هنا ما يشمل الجسم .

وأما الروح فقد ظهرت عجائبها بالتنويم المغناطيسى الذى تناقلته الإفرنج عن الهنود .

* * *

قالت جمال : «كيف تبقى الروح بعد الموت مع أننا نرى الجسم متفرق الأجزاء قد أكله الدود وتناثر لحمه وبليت محاسنه وذهب رونقه على أننا نرى الأطباء يخدرون المرضى فلا يحسّون بألم ومعلوم أن الموت أشد من التخدير بتلك الأجزاء الطبية ؟ فإذا كان بالتخدير لا يحس بالألم ولا بالسرور ، فما بالك بالموت ؟» .

فقال إبراهيم : أيتها الفتاة ، إن للروح بقاء بعد الموت . وما مثل الروح فى الجسم إلاّ كمثل الماء فى الإناء ، أو السراج فى الزجاجة التى كأنها كوكب درى . فكما أن الماء إذا كان فى الإناء أعطى صفاته من حيث الشكل واللون ، فيحمر لاحمراره ويصفر لاصفراره ويخضر لاخضراره : كذلك الروح مادامت فى الجسم تعطى حكمه وتتأثر بتأثره ، فتتخدر بالتخدير وتضعف بالضعف حتى إن المريض نراه سيئ الخلق لانحراف مزاجه وضعف قواه البدنية ، والخلق من صفات الروح لا الجسم . فهاهنا تأثرت الروح بالجسم ، وهكذا حال السكران . وأقوى من ذلك كله المادة التى تشمم

للمريض وهى «الكلور وفورم» فإنها خلاصة مواد متخمرة ، وبعبارة أخرى خلاصة خمر فلا جرم إذا كان تأثيرها أشد . وهذا كله لحكم الجسم على الروح كما حكم الزجاج على الماء فيه فأعطى كثيرا من أحكامه وصفاته . وكما أن الزجاجة إذا انكسرت رجع الماء إلى حاله الأولى : فهكذا الروح إذا فارقت الجسم رجعت إلى عالمها متحملة بأنوارها أو ظلماتها ، بل مثل الروح فى الجسم كمثل المصباح فى الزجاجة : فإذا لونت الزجاجة بأى لون خرج ضوء الزجاجة على ذلك اللون نفسه من أحمر أو أخضر أو غيرهما . فإذا كسرت الزجاجة بقى النور بشكله الأصلى ؛ فالروح إذا فارقت الجسم رجعت إلى عالمها : فإما إلى جنة وإما إلى نار !